

مدينة .. وامرأة

بقلم: رولان جاكوي

ترجمها من الفرنسية : أ.د. حامد طاهر

مساء الأربعاء، وقبل رحيله إلى نيويورك، ذهب لمشاهدة فيلم (وودي ألان). وعندما خرج من السينما، تمشى طويلاً في شارع الإيطاليين بباريس مفكراً في تلك المدينة المشاسعة، الدافئة، والمقلقة إلى حد ما، والتي سيتنزه فيها غداً لأول مرة في حياته. لقد أجل هذه الرحلة أكثر من مرة، لأن هناك مسألة كانت تقلقه: كيف سيقابل (فان)، التي أحبها منذ خمسة عشر عاماً، في قرية هادئة على بحيرة ليمان، والتي تعيش الآن في نيويورك.. كان هو أيضاً وحيداً، ويقترب من الأربعين. وفي المساء، غالباً ما فكر في موته، لكنه كان يعد نفسه بأنه لن يموت قبل أن يرى فيلم (مانهاتان)، وصاحبه القديمة

(

فان

.

كان يتسائل أيضاً: لماذا يحلم كثيراً بها؟ لماذا تشبهها كل النساء اللاتي عرضهن بعدها؟ لماذا كان سخيلاً معها لحظة الفراق؟

إنها لم تغفر له قط ، وهو يعلم أنه على إثر محاولة انتحار منها ، ودخولها إحدى مصحات الأمراض النفسية ، قد فقدتها إلى الأبد..

تذكر كل هذا كحلم ثقيل ، ربما تزيله تلك الرحلة السريعة إلى نيويورك . ولأنه كان في بعض اللحظات إنساناً رومانسياً ، فقد أقنع نفسه بأنه سيذهب ليلتقي في وقت واحد : بمدينة وامرأة ، بماضيهِ وموته . وفي لحظات أخرى ، كان يسخر من مراهقة أحلام يقظته ، ومن المجاملة التي عامل بها حياته ، والتي أراد منها أن يستدر الشفقة على نفسه . إنه - القارئ الموفي لنيته - كان يعتقد بأن التقوى هي أدنى المشاعر !

في نيويورك ، نزل في فندق (بلازا) . كان قد كتب منذ أسبوعين إلى (فان) أنه سيقضي فيها ثلاث ليالي ، وأنه يتمنى أن يلتقي بها . أما هي فلم ترد . كما لم يكن في انتظاره بالفندق أية رسالة منها . وبعد أن استراح قليلاً ، تلفن إلى بعض الأصدقاء . لم يجرؤ أن يـ تلفن لها . كان يخشى ألا تكون موجودة ، أو أن ترفض مقابلته . كان يشعر بأنه يمكن أن يمنح عدة سنوات من عمره لقاء سهرة واحدة يقضيها .

عندما كلمها ، سمعها تتحدث عن أنها كانت مشغولة جداً . وأنه يوجد في نيويورك ، على أية حال ، أشياء أخرى أكثر إثارة من رؤيتها . ومجروحاً ، تردد في أن يرد بنفس اللهجة . بل إنه خشي أن تضع السماعة ، لكنه استمر .. هو الذي كان يرى أن كلاً من التواضع والإلحاح ضرب من الحمافة . وأخيراً سمعها تلقي إليه بهذه الكلمات كصدقة : "تلفن لي يوم السبت بعد الظهر: ربما تمكنت من أن أتغدى معك."

قبل أن ينام ، كتب في مذكراته: "هل حقيقة أن (فان) هي التي تشغلني ؟ ألا يمكن أن يكون ذلك الجزء من ذاتي الذي لم ينجح في أن يتخلص منها ؟ تلك هي مأساة الحب الذي يحرمنا أحياناً بصورة نهائية من آلاف الأشياء التي نمتلكها ، ثم أضاف أنه سيكون مخطئاً لو لام (فان) على أي شيء . لأن كل ما حدث هو خطأي . عندما قطعت علاقتي بها ، تصرف نحوها مثل وعد . إنها لم تغفر لي قط . ولم تسامحني قط . يبدو أنها ستظل تكن لي الكراهية . وأنا أشعر على فقدائها بالندم . وهكذا أصبح متعادلين .

في اليوم التالي - الجمعة - ذاب في أحشاء تلك المدينة الضخمة والمهائلة التي أحبها من قبل . وقد فكر أنه إذا اضطر يوماً لمغادرة باريس ، فإنه سيجعل من نيويورك ملجأه . ولأنه شاهدها مئات المرات في السينما والتلفزيون ، لم يشعر فيها بأية غربة

لقد تسلى ، مع ذلك ، بملاحظة مدى فقر أحاسيسنا وخطأها . وهكذا لم يندهش لرؤية التاكسيات تحمل اللون الأصفر ، كما لم يفاجأ بأن سيارات المبوليس تجمع بين اللونين الأزرق والأبيض

السبت ، عند الظهر تمامً ، بعد أن تنزه في الحي الصيني (تشينا تاون) ، تلفن إلى (فان) . أعطته موعداً في مطعم ياباني يقع في الشارع رقم 57 . كما كان متوقعاً ، وصل هو أولاً ، وجاءت هي متأخرة . كان شعرها قصيراً ، بدون تلك " القصة " التي كانت تعجبه كثيراً . كانت ترتدي ملابسها بنفس الأناقة والتحفظ اللذين عرفها بهما من قبل

وأيضاً كما كانت من قبل ، راحت تدخن سيجارة بالنعناع .

أما هو ، فقد كان متوتراً ، وغير مستريح . أحس بأنها عصبية ، ومشدودة ، غصبي ، ومحاطة بأسلاك شائكة غير مرئية . لكن ما أدهشه أكثر كان هو سماع صوتها على نحو لا يقاوم .. أنصت إليها بقداسة ، كما لو كانت هي الموسيقى الوحيدة القادرة على أن تهدئه .. على أن تصالحه مع ذاته ، إلى حد أنه كان يفتقد معظم خيوط المحادثة . وعموماً ، فإنه كان دائماً لا يهتم بجلساته الذين يخونون - بطريقة حديثهم ، ولهجتهم ، وحركات جسدهم صياتهم الحقيقية !

تغدياً معاً في المطعم الياباني . وقد طلبت هي مشروباً ساخناً ، لاحظها وهي تشربه . كاد يجرؤ أن ينظر إليها . كان يشعر معها بشعور من الخجل الذي كان يحدث بين تلميذ وتلميذة في مدرسة واحدة . لكنه بدأ يشعر بإحساس من الفرح لأنها نسيت ماضيها . ومع ذلك ، فكلما مضى الوقت ، راحت علاقتهما تصبح أكثر طبيعية ، وتقريباً متواطئة . وتبادلا بعض الاعترافات الذاتية . حدثته هي

عن محاولاتها الثلاث في الانتحار ، وعن وحدتها ، وعن شعورها بأنها لا تجد في أي موضع المكان الذي يناسبها . أما هو فقد حاول أن يستعيد بعض المشاهد التي عاشها معاً ، بعض الأفلام التي أحبها ، وخاصة (بييرو المجنون) لجان لوك جودار . لكنها أخبرته بأن ذاكرتها ضعيفة ، وأنها تتذكر بصعوبة حبهما القديم .

ثم بعد ذلك ، أخذت عليه أنه يعيش أكثر مما ينبغي في الماضي . وبسرعة أجاب :

لكنني أجد فيه سعادتي الوحيدة

..

كان منتشيّاً من وجوده هنا ، وببساطة معها . سعد كثيراً من رؤيتها أكثر عفوية ، وأكثر بساطة . ولم يندهش قط عندما اقترحت عليه أن يتنزها في الحديقة العامة . وهناك تحدثا عن (بروست) ونظريته في الحب ، وعن (سيوران) وانحطاط الغرب . بروست الذي قرأه لها بصوت عال خلال أمسيات كاملة ، وسيوران الذي جعله يكتشف الحاضر والماضي . وفي تلك اللحظة ، اعترف كل منهما للآخر بحبه . وصرح بأنه قد حصل أخيراً على رواية (فريتز زورن) : مارس ، مضيفاً أنه - منذ كافكا - لم يقرأ شيئاً بمثل تلك القوة ..

قرب الغروب ، طلبت منه أن يصحبها عند بالدوكسي ، أحد محلات الموضة . وبينما راحت تخطو من جناح لآخر في المحل ، كان هو يراقبها ، وسأل نفسه: هل كان سينجذب إليها إذا كان يراها الآن للمرة الأولى ؟ ولم يستطع إلا أن يرد بالإيجاب . وتساءل أيضاً: هل لو كان تزوجها ، كما كانت هذه نيته من قبل . يعتبرها الآن هفوة شباب يلزم التكفير عنها طوال العمر . حسب تعبير فيلسوفه العزيز (شوبنهاور) . إن أفعالنا - كما قرر لنفسه أكثر من مرة - عبارة عن ضربات زهر في ظلمة ليل المصادفة !

في أثناء صحبته لها إلى منزلها ، حرص على أن يخبرها أنه ما زال يحس بأنه مذنب في موقفه . وصرحت له حول هذه النقطة على الأقل: " أنا تغيرت . لقد طرحت عادة تغيير الآخرين لحساب مشكلاتي الشخصية . إنني أعتقد أن كل إنسان يذال في الحياة ما يستحقه .. " ورد بابتسامة ، عندما أصغى لها وهي تستشهد بعبارة مأثورة لابيكتيت الذي أرسله لها لحظة الفراق: " إن اتهام الآخرين بعداياتي الشخصية لا يعني إلا الجهل . وفقدان الهوية الخاصة إنما يأتي من شخص بدأ يثق نفسه . وإذن فلا ينبغي اتهام الذات أو الآخرين . لأن هذا إنما يحدث من شخص مثقف بالكامل " . وأضافت: " ألا ترى .. إنني لم أنس تماماً كل شيء " ..

كان الليل قد سقط من وقت طويل ، عندما وصلا أمام منزلها . وكان هو في الوقت نفسه مرتاحاً ، وقلقاً . ماذا يفعل لكي يعود إلى ذلك الوقت الذي يجعلها فيه سعيدة . قال: " إلى اللقاء " كأصدقاء قدامى . تردد في أن يأخذها بين ذراعيه وأن يقول لها: " ابقيني معي . لن نفترق بعد الآن . سنعيش منذ الآن أحدهما للآخر .. أحدهما بالآخر " ومع ذلك صمت . لا خوفاً من أن يصد من جانبها كانت لديه تجارب كثيرة مشابهة ، علمته أنه كان بالتأكيد صادقاً ، في اللحظات التي يقول فيها أمثال هذه الكلمات ، لكنه كان في الوقت نفسه يكذب ، لأنه كان يحس بعطش إلى المغامرة ، وإلى عدم الوفاء .. كان يعرف عن نفسه أنه غير ملتزم ، لكنه وفي .. وفي للغاية . لأنه حتى لو أراد ، فلن يستطيع أن ينسى أقل التفاصيل الصغيرة التي عاشها مع النساء اللاتي أحبهن . ولم يكن يريد أن يختار . لم يكن يريد أن ينزعج . إن لم يكن حتى الآن .. فعلى الأقل .. في اليوم التالي ، قبل أن يغادر الفندق إلى المطار ، تلفن إلى (فان) لآخر مرة . اقتصر على أن يشكرها بصورة رسمية على قبولها أن تراه

ومع ذلك أضاف بلهجة مرحة أنه وجدها دائماً جميلة جداً ، مرغوبة جداً

..

لكنه لم يجزؤ على أن يغازلها ، ولما أن يشعر بأنها ما زالت تهتم به . أما هي فقد طلبت منه أن يرسل لها كتاب (فريتز زورن) . وهكذا

كما فكر: العلاقة بينهما لن تنقطع تماماً! في مذكراته الخاصة , كتب ملاحظة: "ماذا تعتقد في حقيقة ؟ أي لعبة نلعبها ؟ يبدو أنني لن أعرف أبداً
".

في الطائرة , بعد أن تناول العشاء , وشاهد (دون سيجل) في فيلم (سجين الكاتران), جاءتته الرغبة في أن يكتب لفان .. وفي مسودة خطاب , راح يخط ما يلي:

"كما طلبت مني , أبعث إليك بكتاب زورن . لكن حذار .

فإنه ذري . إن القارئ لا يخرج من قراءته غير مبال . وعندما تقرأينه سوف تفهمين على نحو أفضل لماذا كنت أتصرف بعنف في شبابي .. بعنف ووحشية وحمق ضد السرطان الأخلاقي الذي يحكم قبضته على البلد الذي انسابت فيه طفولتنا , والذي - بصورة أو بأخرى - قد أصابنا جميعاً . إنني ملتهد لسماح رد فعلك ..

سوف أصل الآن إلى نقطة لم أشأ أن أثيرها خلال لقائنا الأخير . إذا كان قد تحقق لي السرور في رؤيتك - أكثر من السرور: الحاجة .. فإنما هذا لأنك أكثر حضوراً في من أن امرأة أخرى عرفتها حتى الآن . إنني بالتأكيد أعيش في الماضي . لكنني بصفة عامة أعتبر أنه قد مضى بصورة نهائية . معك بالعكس: لدي إحساس بأن شيئاً ما يمكن , بل يجب أن يقربنا مع المسنين أكثر فأكثر . من يدري .. حتى بعد عشر سنوات .. ربما .. لكنني أحلم ببساطة بأجمل هدية قدمتها لي الحياة , وهو أنت .. وأود بكل طاقتي أن أكون أهلاً لها .

وبدون شك أنت على حق: ليس لكل إنسان إلما ما يستحقه ..

إن شعوري بذلك الإحساس الشنيع وهو أنني أصبحت لا مبالياً (لكن ليس كلية , وهذا يمنح الأمل , بعض الأمل) يجعلني أتأمل نفسي جيداً عندما أسأت إليك كل هذا الوقت الطويل .

إنني حريص فقط أن أقول لك هذا . وذلك أسهل عن طريق الكتابة , فإنه يصعب على أمامك أن أقوم بدور .. وقد كنت دائماً إنساناً غير حصيف .. هل تذكرين مثلاً عندما خرجت من المدرسة , وسألتك عن أختك , إنه أنت وحدك التي تعتبر هذا اليوم!

حسناً .. لن أتعبك أكثر من هذا بأغراض تعتبرينها خارج الموضوع .

مع خالص مودتي

"ملحوظة " فيما يتعلق بكتاب زورن , يمكنك اهمال مقدمة موشج , فهي لا تضيف أي شيء . بل على العكس ."

وفي اللحظة التي أنهى فيها مسودة هذا الخطاب , أحس بأنه لن يرسله إلى (فان)..)

بدأ يحس بالراحة عندما رأى انبلاج الصباح من الطائرة . وبالمصادفة , وربما من قبيل المعجزات , انسابت في السماعه التي وضعها على أذنيه - بعد أن تخير إحدى القنوات - موسيقى تريستان وايزولد لفاجنر .. قطعت الموسيقى المفضلة . وهنا أحس أمام كل المخلوقات بشعور العرفان . ما يخبئه له المستقبل مجهول

لكنه كان سعيداً , لأنه عاش حتى تلك اللحظة

..

وقد مرت به ساعات أمل ويأس , ورأى ليالي ونهارات , واعتقد ولعن .. لكنه أدرك في تلك اللحظة أنه لن يصبح بعد الآن وحيداً . كان يكفيه فقط أن ينتظر . وقبل كل شيء أن يتعلم أن يعيش الحياة في صداقة , ثم في انسجام مع ذاته .

دون شك , كل من الإرهاب والمانفعل أراج روحه النقدي وأضاء بصيرته . إنه الآن واع بنفسه . لكنه كان يعلم أن هذا كان ضرورياً . كما أنه من الضروري وجود الرفض والإيجاب , الظلمات والنور ..

في صباح الاثنين , وفي طريقه إلى الجريدة التي يعمل فيها بباريس , مر من جديد على السينما التي تعرض فيلم (مانهاتان) . انفلتت منه بسمة تواطؤ للبطلين (ديان كيتون) , (وودي آلان) . وقال لنفسه إنه بعد هذه الرحلة السريعة في نيويورك يمكنه أن يكون مادة قصة . وكتب في نفس المساء . لم يشعر بأنه كتب قط بمثل تلك الحيوية . إن معظم الكتابات خيالة , وخيانة للنفس

.